مجموعة لسيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

(١٧)

أدب و عفة

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ؛ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) .

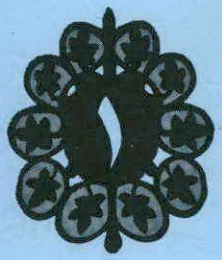

بِهٰذِهِ الآيَاتِ أَمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ أَلاَّ يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُدْعَوْا إِلَى دَعْوَةٍ ، أَوْ يُؤْذَنَ لَهُمْ فِي طَعَامٍ ؛ فَإِذَا مَا فَرَغُوا مِمَّا دُعُوا إِلَيْهِ ، وَأُذِنَ لَهُمْ فِيهِ ؛ انْصَرَفُوا إِلَى سَبِيلِهِمْ .

وَبِذٰلِكَ أَعْفَى اللهُ نَبِيَّهُ مِمَّا كَانَ يُؤْذِيهِ مِنْ إِطَالَةِ جُلُوسِ الرِّجَالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِبُيُوتِهِ إِذَا مَا دُعُوا إِلَى دَعْوَةٍ ، وَمِنْ مَجِيئِهِمْ إِلَى مَسَاكِنِهِ إِذَا أَعْوَزَهُمْ أَمْرٌ ، أَوْ أَلَمَّتْ بِهِمْ حَاجَةٌ ؛ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ هٰذِهِ الآيَاتِ عَلَى نَبِيِّهِ فِي وَقْتٍ اشْتَدَّ

فِيهِ حَرَجُهُ ، وَمَنَعَهُ فِيهِ شِدَّةُ حَيَائِهِ مِنْ أَنْ يُبْدِيَ لِلْمُسْلِمِينَ شَيْئًا مِمَّا تَتَأَذَّى بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ أَنْ يُصَرِّحَ لِمَنْ يَقْصِدُونَهُ فِي بُيُوتِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ مِمَّا يَعْتَمِلُ فِي صَدْرِهِ .

وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ قَدْ دَعَا جَمَاعَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامٍ أَعَدَّهُ لَهُمْ فِي إِحْدَى الْمُنَاسَبَاتِ الطَّيِّبَةِ - فَجَعَلَ الْمَدْعُوُّونَ يَأْتُونَ إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ يَطْعَمُونَ حَتَّى لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَدْعُوٌّ لَمْ يَأْتِ إِلَى طَعَامِ الرَّسُولِ ، وَلٰكِنَّهُمْ أَكَلُوا وَانْصَرَفَ بَعْضُهُمْ ، وَبَقِيَ بَعْضٌ آخَرُ يَتَحَدَّثُونَ وَيَسْمُرُونَ ، وَأَطَالُوا الْحَدِيثَ وَالسَّمَرَ ، حَتَّى مَلَّ النَّبِيُّ طُولَ مُقَامِهِمْ ؛ وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ مُغَادَرَتَهُمْ لِدَارِهِ وَلٰكِنَّهُمْ أَطَالُوا الْجُلُوسَ وَامْتَدَّ بِهِمُ السَّمَرُ ، دُونَ أَنْ يَهُمُّوا بِقِيَامٍ أَوْ يَشْرَعُوا فِي انْصِرَافٍ . فَنَهَضَ النَّبِيُّ وَدَخَلَ إِلَى بُيُوتِ نِسَائِهِ يَطُوفُ بِهِنَّ يُحَيِّيهِنَّ وَيَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِهِنَّ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَجْلِسِ مَدْعُوِّيهِ فَإِذَا بَعْضُهُمْ لاَ يَزَالُ جَالِسًا . عِنْدَئِذٍ شَعَرَ النَّبِيُّ بِضِيقٍ ... وَأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ حَرَجًا . وَلٰكِنَّ لُطْفَهُ وَشِدَّةَ حَيَائِهِ مَنَعَاهُ مِنْ أَنْ يُظْهِرَ شَيْئًا مِمَّا فِي نَفْسِهِ لِمَنْ بِدَارِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَعَادَ النَّبِيُّ إِلَى بُيُوتِ نِسَائِهِ ، وَدَخَلَ إِلَى مَسْكَنِ عَائِشَةَ ، وَهُنَا

أَحَسَّ الرِّجَالُ أَنَّهُمْ أَثْقَلُوا بِإِطَالَةِ جُلُوسِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ فَنَهَضُوا مُنْصَرِفِينَ .

وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ خَادِمُ النَّبِيِّ قَدْ شَعَرَ بِمَا أَحَسَّ بِهِ النَّبِيُّ مِنْ ضِيقٍ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ الرِّجَالُ تَوَجَّهَ إِلَى مَسْكَنِ عَائِشَةَ لِيُخْبِرَ النَّبِيَّ بِانْصِرَافِ الْقَوْمِ ، فَإِذَا النَّبِيُّ خَارِجٌ مِنْ بَابِ الْمَسْكَنِ يَتْلُو هٰذِهِ الآيَاتِ ، وَقَدْ أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ .

وَعَرَّفَ أَنَسٌ النَّبِيَّ بِمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَعِنْدَئِذٍ مَدَّ النَّبِيُّ يَدَهُ فَأَسْدَلَ السِّتْرَ بَيْنَ أَنَسٍ وَبَيْنَ مَسَاكِنِ نِسَائِهِ ، وَبِهٰذَا شُرِعَ الْحِجَابُ وَبَدَأَتِ النِّسَاءُ يَحْتَجِبْنَ عَنِ الرِّجَالِ .

وَبِهٰذِهِ الآيَاتِ وَبِغَيْرِهَا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ فُرِضَ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ وَنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْحِجَابُ وَفُرِضَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا أَلَّا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لأَزْوَاجِهِنَّ وَأَقَارِبِهِنَّ ، وَأَلَّا يَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى حِفْظًا لِكَرَامَتِهِنَّ وَصَوْنًا لِطَهَارَةِ قُلُوبِهِنَّ .

وَبِهٰذَا الْحِجَابِ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، سُنَّتْ سُنَنٌ جَدِيدَةٌ فِي الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ . وَبِهٰذَا الْحِجَابِ قَامَ بَيْنَ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ نَوْعٌ مِنَ الاحْتِرَامِ الْمُتَبَادَلِ ، وَشُرِعَتْ بَيْنَهُمَا قُيُودٌ مِنَ

الْمُعَامَلَةِ الْكَرِيمَةِ .

وَبِهٰذَا صَارَ رِجَالُ الْمُسْلِمِينَ لاَ يَـؤُمُّونَ بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ بِإِذْنٍ أَوْ بِدَعْوَةٍ ، فَإِذَا مَا انْتَهَوْا مِمَّا دُعُوا مِنْ أَجْلِهِ – انْصَرَفُوا وَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُورِ النَّبِىِّ مَكَانًا لِلسَّمَرِ أَوِ اسْتِئْنَاسًا لِلْحَدِيثِ .

فِى هٰذِهِ الآونَةِ الَّتِى أَسْبَغَ اللهُ فِيهَا عَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا أَسْبَغَ . وَفِى هٰذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتِى أَعْقَبَتْ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَخَلاَصَهُمْ مِنْ يَهُودِ بَنِى قُرَيْظَةَ الَّذِينَ غَدَرُوا بِهِمْ - شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ بِرَاحَةٍ ، وَأَحَسُّوا باطْمِئْنَانٍ ، شَاعَا فِى نُفُوسِهِمْ ، وَظَهَرَ أَثَرُهُمَا جَلِيًّا فِى حَيَاتِهِمْ .

وَكانَ النَّبِىُّ قَدْ قَسَّمَ أَمْوَالَ بَنِى قُرَيْظَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْخُمْسَ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ . كَمَا قَسَّمَ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ،

وَأَرْسَلَ طَائِفَةً مِنْ سَبَايَاهُمْ إِلَى نَجْدٍ فَابْتَاعَ بِهَا خَيْلاً وَسِلاَحًا فَزَادَ فِى مَنَعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّتِهِمْ . وَبِذٰلِكَ سَكَنَ الْمُسْلِمُونَ وَطَابَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ .

وَوَقَعَتْ رَيْحَانَةُ مِنْ سَبَايَا بَنِى قُرَيْظَةَ فِى نَصِيبِ الرَّسُولِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهَا الإِسْلاَمَ وَعَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يُعْتِقَهَا وَيَتَزَوَّجَ مِنْهَا ، وَبِذٰلِكَ يَرْتَفِعُ بِمَنْزِلَتِهَا إِلَى مَرَاتِبِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلٰكِنَّهَا رَفَضَتْ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ ، فَأَصَرَّتْ أَنْ تَبْقَى عَلَى يَهُودِيَّتِهَا ، وَأَعْرَضَتْ عَنِ الْعِتْقِ وَالزَّوَاجِ وَهِىَ تَقُولُ لِلرَّسُولِ : بَلْ تَتْرُكْنِى فِى مِلْكِكَ فَهُوَ أَخَفُّ عَلَىَّ وَعَلَيْكَ .

وَتَرَكَهَا الرَّسُولُ عَلَى مَا تَبْغِى ، وَإِنْ وَجَدَ فِى نَفْسِهِ لِذٰلِكَ ، وَأَسِفَ لِهٰذَا أَشَدَّ الأَسَفِ . وَلٰكِنَّ رَيْحَانَةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَسْلَمَتْ ، فَكَانَ فِى ذٰلِكَ لِلنَّبِىِّ سُرُورٌ أَىُّ سُرُورٍ .

فِى هٰذِهِ الْفَتْرَةِ الَّتِى تَفَيَّأَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ فِى ظِلاَلِ الأَمْنِ ، وَرَكَنُوا فِيهَا إِلَى سُكُونِ الرَّاحَةِ ، وَدَعَةِ الْهُدُوءِ . كَانَ النَّبِىُّ يَشْغَلُ فِكْرَهُ بِمَا يَحْفَظ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هٰذا الأَمْنَ ، وَيُبْقِى لَهُمْ عَلَى هٰذِهِ الرَّاحَةِ . وَكَانَ

يَبْحَثُ فِيمَا يَبْغِى لِمُسْتَقْبَلِ الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَفِيمَا يَجِبُ أَنْ يَتَّبِعَ لإِتْمَامِ نَشْرِ دَعْوَتِهِ ، وَهِدَايَةِ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِلإِيمَانِ .

كَذٰلِكَ لَمْ يَنْسَ النَّبِىُّ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الحَذَرِ مِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِى لَمْ يَكُنْ قَدْ عَقَدَ مَعَهَا حِلْفًا ، أَوْكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا عَهْدَ مُوَادَعَةٍ ، وَلَمْ يَفُتْهُ مُرَاقَبَةُ الْقَبَائِلِ الَّتِى ذَاقَ مِنْهَا طَعْمَ الْغَدْرِ ، أَوِ الَّتِى كَانَ يَشْتَمُّ مِنْهَا رَائِحَةَ الْخِيَانَةِ . فَكَانَ يَبْعَثُ بِرُسُلِهِ وَعُيُونِهِ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ لِيَأْتُوهُ بِمَا يَسْتَطِيعُونَ الْحُصُولَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْبَارٍ تُعِينُهُ عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ ، وَيَمُدُّونَهُ بِأَنْبَاءٍ يَسِيرُ بِمُقْتَضَاهَا فِى رَسْمِ خطَطِهِ وَوَضْعِ تَدْبِيرَاتِهِ . وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ خطَطِ الرَّسُولِ مُهَاجَمَةُ كُلِّ مَنْ يَعْرِفُ عَنْهُ أَنَّهُ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِمُهَاجَمَتِهِ فَيَكُونُ بِذٰلِكَ هُوَ السَّابِقَ إِلَيْهِ ، وَمُهَاجَمَةُ كُلِّ مَنْ خَانَهُ وَغَدَرَ بِهِ بَعْدَ أَنْ أَمِنَ لَهُ وَرَكَنَ إِلَيْهِ .

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الرَّسُولُ أَنْ يَنْسَى أَصْحَابَهُ الَّذِينَ أَرْسَلَ بِهِمْ إِلَى بَعْضِ الْقَبَائِلِ لِيُعَلِّمُوهُمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَيُفَقِّهُوهُمْ فِى دِينِ الإِسْلاَمِ فَغَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ . وَعَلَى هٰذا لَمْ يُفَكِّرْ أَوَّلَ مَا فَكَّرَ بَعْدَ انْتِصَارِهِ عَلَى قُرَيْشٍ وَقَضَائِهِ عَلَى بَنِى قُرَيْظَةَ ، إِلاَّ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى بَنِى لِحْيَانَ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ لأَصْحَابِ يَوْمِ

الرَّجِيعِ : خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ ذَهَبُوا ضَحِيَّةً لِوَفَائِهِمْ ، وَرَاحُوا شُهَدَاءَ لِدِينِهِمْ .

وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي قُوَّاتِهِ لِغَزْوِ بَنِي لِحْيَانَ ، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يُظْهِرْ غَرَضَهُ هٰذَا حَتَّى يَأْخُذَ عَدُوَّهُ عَلَى غِرَّةٍ ، فَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَنْحَدِرَ جَنُوبًا نَحْوَ مَنَازِلِ بَنِي لِحْيَانَ قُرْبَ مَكَّةَ ، خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَاتَّجَهَ شَمَالاً مُصْعِدًا نَحْوَ الشَّامِ . وَلَمَّا تَأَكَّدَ لَدَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مِنَ الْعُيُونِ مَنْ يَفْطِنُ لأَمْرِهِ ، وَيَتَعَرَّفُ وِجْهَتَهُ ، كَرَّ رَاجِعًا جَنُوبًا نَحْوَ مَكَّةَ بَعِيدًا عَنِ الْمَدِينَةِ .

وَأَسْرَعَ النَّبِيُّ فِي السَّيْرِ حَتَّى بَلَغَ مَنَازِلَ بَنِي لِحْيَانَ بِغُرَانَ ، وَلٰكِنَّهُ وَجَدَ مَنَازِلَهُمْ سَاكِنَةً لاَ حَرَكَةَ فِيهَا ...! خَالِيَةً مِنَ النَّاسِ . . . ! لَيْسَ بِهَا شَيْءٌ يُذْكَرُ مِنَ الْمَتَاعِ ..!

وَأَدْرَكَ النَّبِيُّ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَحَسُّوا بِهِ فِي انْحِدَارِهِ إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّ عُيُونًا لَهُمْ قَدْ رَأَتْهُ فِي اتِّجَاهِهِ نَحْوَهُمْ ، فَتَفَرَّقُوا بَيْنَ شِعَابِ الصُّخُورِ ، وَأَخَذُوا مَتَاعَهُمْ ، وَاعْتَصَمُوا مِنْهُ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ .

وَعَادَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ عَسْكَرَ جَيْشُهُ وَقْتًا بِعُسْفَانَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ

دُونَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَى عَوْدَةِ النَّبِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ غَيْرُ لَيَالٍ قَلَائِلَ ، حَتَّى أَغَارَ عَلَى بَعْضِ أَطْرَافِهَا رِجَالٌ مِنْ غَطَفَانَ عَلَى رَأْسِهِمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ . وَوَجَدَ الْمُغِيرُونَ أَمَامَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَغَارُوا عَلَيْهِ إِبِلاً تَرْعَى ، يَحْرُسُهَا رَجُلٌ وَامْرَأَتُهُ . فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلاَّ أَنِ انْقَضُّوا عَلَى الرَّجُلِ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ حَمَلُوا الْمَرْأَةَ ، وَسَاقُوا الإِبِلَ ، وَوَلَّوْا مُسْرِعِينَ وَقَدْ حَسِبُوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفِرُوا بِمَا ظَفِرُوا بِهِ دُونَ أَنْ تَرَاهُمْ عَيْنٌ . وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مُخْطِئِينَ ...!

فَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ يَمُرُّ بِالْقُرْبِ مِنْ هٰذَا الْمَكَانِ سَلَمَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الأَكْوَعِ الأَسْلَمِيُّ وَقَدْ تَوَشَّحَ قَوْسَهُ وَنَبْلَهُ ، وَغَدَا يُرِيدُ الْغَابَةَ يَتْبَعُهُ غُلَامٌ يَقُودُ فَرَسًا لَهُ ، فَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى الْمُغِيرِينَ وَهُمْ يُوَلُّونَ بِالْمَرْأَةِ وَالإِبِلِ مُدْبِرِينَ ، فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَاصُبْحَاهْ ...! وَاصبْحَاهُ ... !

ثُمَّ اشْتَدَّ خَلْفَ الْهَارِبِينَ يَبْغِي اللَّحَاقَ بِهِمْ . وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحَظَاتٌ حَتَّى كَانَ سَلَمَةُ فِي أَعْقَابِ الْقَوْمِ يَشُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْسَهُ وَيَرْمِيهِمْ بِنَبْلِهِ . وَبَلَغَ مُحَمَّدًا صِيَاحُ ابْنِ الأَكْوَعِ فَنَادَى بِالْمَدِينَةِ :

ٱلْفَزَعَ . . . ! ٱلْفَزَعَ . . . !

عِنْدَئِذٍ تَرَامَى إِلَى مُحَمَّدٍ فُرْسَانُ الْمَدِينَةِ يَتَسَابَقُونَ ، فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِى أَثَرِ الْمُغِيرِينَ .

وَخَرَجَ النَّبِىُّ فِى جَيْشٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَحِقَ بِفُرْسَانِهِم الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَسْتَخْلِصُوا مِنَ الْمُغِيرِينَ شَطْرَ الإِبِلِ ، وَعَلَى نَاقَةٍ مِنْهَا الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ الَّتِى اخْتَطَفَهَا الْمُغْتَصِبُونَ .

وَفَرَّ الْمُغِيرُونَ فَاحْتَمَوْا بِقَوْمِهِمْ غَطَفَانَ بَعْدَ أَنِ اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْ بَعْضِهِمْ مَقْتَلاً .

وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ لِلنَّبِىِّ : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ أَذِنْتَ لِى فِى مِائَةِ رَجُلٍ لَقُمْتُ بِالْهُجُومِ بِهِمْ عَلَى هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ .

وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِى ذٰلِكَ ، وَقَدْ عَرَفَ أَلاَّ فَائِدَةَ وَالْمُغِيرُونَ قَدْ لَحِقُوا بِقَوْمِهِمْ غَطَفَانَ .

وَعَادَ النَّبِىُّ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَتَتِ الْمَرْأَةُ حَارِسَةُ الإِبِلِ الَّتِى نَجَتْ مِنْ أَيْدِى الْمُغْتَصِبِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ تَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنِّى قَدْ نَذَرْتُ للهِ أَنْ أَنْحرَ النَّاقَةَ إِنْ أَنْجَانِى اللهُ عَلَيْهَا .
فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ وَقَالَ : بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا أَنْ حَمَلَكِ اللهُ عَلَيْهَا ، وَنَجَّاكِ بِهَا ،
ثُمَّ تَنْحَرِينَهَا ..! إِنَّهُ لاَ نَذْرَ فِى مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَلاَ فِيمَا لاَ تَمْلِكِينَ ..!

وَبَلَغَ النَّبِىَّ أَنَّ بَنِى الْمُصْطَلِقِ - وَهُمْ فَرْعٌ مِنْ خُزَاعَةَ - يَجْمَعُونَ جُمُوعًا مِنَ الْعَرَبِ لِيَغْزُوهُ بِهَا ، وَعَلَى رَأْسِ هٰذِهِ الْجُمُوعِ الْحَارِثُ بْنُ أَبِى ضِرَارٍ سَيِّدُ بَنِى الْمُصْطَلِقِ . فَلَمْ يَتَوَانَ النَّبِىُّ فِى الْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ لِغَزْوِهِمْ فِى مَنَازِلِهِمْ فِى عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمَّا كَانَتْ مَنَازِلُ بَنِى الْمُصْطَلِقِ غَيْرَ بَعِيدَةِ الشُّقَّةِ عَنِ الْمَدِينَةِ فَقَدْ رَغِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَىٍّ فِى الْخُرُوجِ مَعَ النَّبِىِّ فِى هٰذِهِ الْغَزْوَةِ ، وَتَبِعَهُ فِى ذٰلِكَ عَدَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، يَحْدُوهُمْ إِلَى ذٰلِكَ طَلَبُ الْمَغْنَمِ

السَّهْلِ الْيَسِيرِ. وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الرَّسُولِ إِذَا خَرَجَ فِي غَزْوَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِ أَنْ يَقْتَرِعَ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ فَأَيَّتُهُنَّ طَلَعَ سَهْمُهَا صَحِبَهَا مَعَهُ فِي خُرُوجِهِ. وَاقْتَرَعَ النَّبِيُّ كَعَادَتِهِ بَيْنَ نِسَائِهِ فَكَانَ مِنْ نَصِيبِ عَائِشَةَ الْخُرُوجُ.

وَبَاغَتَتْ جُمُوعُ مُحَمَّدٍ جُمُوعَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ، قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ اسْتِعْدَادَهَا وَتَأْخُذَ أُهْبَتَهَا؛ فَتَفَرَّقَتْ جُمُوعُ الْعَرَبِ عَنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ هَارِبَةً تَارِكَةً إِيَّاهَا هَدَفًا سَهْلاً لِلْمُسْلِمِينَ. وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ مَاءٍ لِبَنِي الْمُصْطَلِقِ، اسْمُهُ الْمُرَيْسِيعُ، فَلَمْ يَدُمِ الْقِتَالُ بَيْنَهُمَا طَوِيلاً فَسُرْعَانَ مَا هُزِمَ بَنُو الْمُصْطَلِقِ وَوَقَعَتْ إِبِلُهُمْ وَمَاشِيَتُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ غَنِيمَةً فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَحَطُّوا بِجِوَارِ مَاءِ الْمُرَيْسِيعِ يَسْتَقُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ. وَوَرَدَ الْمَاءَ فِيمَنْ وَرَدَ أَجِيرٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُودُ لَهُ فَرَسَهُ - وَيُدْعَى جَهْجَاهَ بْنَ مَسْعُودٍ - وَعَلَى الْمَاءِ تَزَاحَمَ جَهْجَاه مَعَ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ الْخَزْرَجِ فَتَشَاحَنَا وَتَقَاتَلاَ، فَصَاحَ الْخَزْرَجِيُّ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ...!

وَصَاحَ جَهْجَاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ...!

فَمَشَى إِلَى الْمُتَشَاحِنَيْنِ نَفَرٌ مِنْ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ فَفَضُّوا مَا بَيْنَهُمَا مِنْ نِزَاعٍ ، وَوَصَلَ هٰذَا الْخَبَرُ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ جَالِسٌ فِى نَفَرٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ الْمُنَافِقِينَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : لَقَدْ كَاثَرَنَا هٰؤُلاَءِ الْمُهَاجِرُونَ فِى بِلاَدِنَا ، وَاللهِ مَا عُدْنَا وَإِيَّاهُمْ إِلاَّ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ : سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ .. ! أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . ثُمَّ قَالَ لِمَنْ يُجَالِسُهُ مِنْ قَوْمِهِ : هٰذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلاَدَكُمْ ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ . أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ . وَسَمِعَ مَقَالَةَ ابْنِ أُبَيٍّ هٰذِهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ ، وَكَانَ غُلاَمًا حَدَثًا إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا صَادِقَ الإِيمَانِ . فَسَارَ إِلَى النَّبِىِّ فَأَخْبَرَهُ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ابْنُ أُبَيٍّ مِنْ فِتْنَةٍ ، وَبِمَا يُضْمِرُ لِلنَّبِىِّ وَلِلْمُسْلِمِينَ مِن شَرٍّ .

فَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الرَّسُولِ غَضَبٌ شَدِيدٌ ، وَلٰكِنَّهُ قَالَ لِلْغُلاَمِ : يَا غُلاَمُ ؛ لَعَلَّكَ قَدْ أَخْطَأَ سَمْعُكَ ! !

قَالَ الْغُلاَمُ : لاَ يَانَبِىَّ اللهِ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : فَلَعَلَّهُ قَدْ شُبِّهَ عَلَيْكَ ! !

أَجَابَ الْغُلَامُ : هٰذَا هُوَ مَا سَمِعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ .

فَتَمَلَّكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ الْغَضَبُ لِمَا سَمِعَ عَنْ خِيَانَةِ ابْنِ أُبَيٍّ وَكَانَ حَاضِرًا حَدِيثَ الْغُلَامِ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مُرْ بِهِ رَجُلاً مِنَّا فَيَقْتُلَهُ ! فَكَانَ جَوَابُ النَّبِيِّ لِعُمَرَ : فَكَيْفَ يَا عُمَرُ لَوْ تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ! لاَ . . . وَلٰكِنْ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ .

وَنُودِيَ فِي مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ بِالاسْتِعْدَادِ لِلْعَوْدَةِ ، فِي وَقْتِ حَرٍّ وَقَيْظٍ لَمْ يَأْلَفِ النَّاسُ مِنَ النَّبِيِّ الرَّحِيلَ فِيهِ ، فَدُهِشُوا لِذٰلِكَ وَعَجِبُوا ، إِلاَّ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ شَاعَ بَيْنَهُمْ مَا كَانَ مِنَ ابْنِ أُبَيٍّ وَبِمَا كَانَ مِنْ عِلْمِ الرَّسُولِ بِهِ وَغَضَبِهِ مِنْهُ .

فَسَارَ إِلَى رَسُولِ اللهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ يَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، لَقَدْ أَمَرْتَ بِالرَّحِيلِ فِي سَاعَةٍ لَمْ تَكُنْ لِتَأْمُرَنَا بِالرَّحِيلِ فِيهَا . . . ! !

فَقَالَ الرَّسُولُ : أَوَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمُ ابْنُ أُبَيٍّ ؟! زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَخْرَجَ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .

قَالَ سَعْدٌ : فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ ، فَهُوَ الأَذَلُّ وَأَنْتَ الأَعَزُّ . وَسَارَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى ابْنِ أُبَيٍّ فَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللهِ ، اِئْتِ رَسُولَ اللهِ يَسْتَغْفِرْ لَكَ .

فَلَوَى عَبْدُ اللهِ رَأْسَهُ مُعْرِضًا عَنْهُ . فَقَالَ لَهُ عُبَادَةُ :

وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ فِي لَيٍّ رَأْسِكَ قُرْآنٌ يُصَلَّى بِهِ .

وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ابْنَ أُبَيٍّ جَبُنَ وَأَنْكَرَ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، بَلْ زَادَ فَأَقْسَمَ بِاللهِ أَنَّهُ مَا قَالَ مَا نُقِلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ عَنْهُ . وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ، بَعْضُهُمْ يُؤَاخِذُونَهُ وَيَلُومُونَهُ عَلَى مَا نَقَلَ إِلَى الرَّسُولِ عَنِ ابْنِ أُبَيٍّ ، وَبَعْضُهُمْ يُكَذِّبُونَهُ فِيمَا قَالَ وَفِيمَا سَمِعَ . وَزَيْدٌ يَنْفِي كَذِبَهُ وَيُؤَكِّدُ لَهُمْ صِدْقَ قَوْلِهِ إِلَى أَنْ قَالَ :

وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ فِي هٰذَا ، مَا تَعْلَمُونَ مِنْهُ صِدْقِي مِنْ كَذِبِي !

وَارْتَحَلَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مَنَازِلِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَدْ حَمَلُوا مَعَهُمْ مَا غَنِمُوا مِنْ مَتَاعٍ وَأَسْرَى وَسَارُوا مُسْرِعِينَ بِأَمْرِ الرَّسُولِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ لاَ يَحُطُّونَ إِلاَّ لِنَوْمٍ أَوْ لِضَرُورَةٍ .

وَبَيْنَمَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ يَسِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّسُولِ ، مَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ فَأَمْسَكَ بِأُذُنِ زَيْدٍ يَشُدُّهَا مُدَاعِبًا وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : وَعَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ ! وَصَدَقَ اللهُ حَدِيثَكَ !

ثُمَّ الْتَفَتَ لِمَنْ حَوْلَهُ قَائِلاً : هٰذَا هُوَ الَّذِى أَوْفَى اللهُ بِأُذُنِهِ ! وَذٰلِكَ أَنَّ اللهَ كَانَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ مِنَ الآيَاتِ مَا أَثْبَتَ غَدْرَ ابْنِ أُبَيٍّ ، وَخِيَانَتَهُ وَسُوءَ نِيَّتِهِ ، وَأَوْضَحَ صِدْقَ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وَوَفَاءَهُ وَإِخْلاَصَهُ .

وَعَلِمَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا مَبْلَغَ كَذِبِ ابْنِ أُبَيٍّ ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ النَّبِىَّ لاَ بُدَّ أَنَّهُ سَيَأْمُرُ بِقَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ عَرَّفَهُ اللهُ مَا كَانَ مِنْ نِفَاقِهِ ، وَمَا كَانَ يَنْتَوِى إِثَارَتَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ انْقِسَامٍ وَفِتْنَةٍ .

وَقَاطَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ابْنَ أُبَيٍّ وَأَعْرَضُوا عَنِ التَّحَدُّثِ مَعَهُ ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ يُؤَنِّبُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَهُوَ لاَ يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهُمْ بَيْنَ خِزْيِهِ وَعَارِهِ : لاَ أَعُودُ لِذٰلِكَ أَبَدًا . . !

وَظَلَّ رَكْبُ الْمُسْلِمِينَ يَسِيرُ سَرِيعًا نَحْوَ الْمَدِينَةِ وَقَدْ بَلَغَ مِنْ رِجَالِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ وَذٰلِكَ لِحِكْمَةِ الرَّسُولِ وَبُعْدِ نَظَرِهِ فِى أَنْ يَشْغَلَ الرَّكْبَ عَنْ حَدِيثِ

ابْنِ أُبَيٍّ وَيُلْهِيهُمْ عَنْ فِتْنَتِهِ ؛ حَتَّى كَانَتِ اللَّيْلَةُ الأَخِيرَةُ فِي رِحْلَتِهِمْ ، وَالسَّابِقَةُ لِدُخُولِهِمُ الْمَدِينَةَ . فَفِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ مَا كَادَتْ جُنُوبُ أَهْلِ الرَّكْبِ تَمَسُّ الأَرْضَ حِينَمَا أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ بِالنُّزُولِ حَتَّى رَاحُوا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ . وَظَلُّوا نِيَامًا حَتَّى نَادَى مُنَادِي مُحَمَّدٍ بِالرَّحِيلِ .

فِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ كَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجَةُ الرَّسُولِ قَدْ غَادَرَتْ مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ لِبَعْضِ شَأْنِهَا . وَكَانَ فِي عُنُقِهَا عِقْدٌ مِنَ الحَبِّ الْمُجَزَّعِ تَعْتَزُّ بِهِ ، فَلَمَّا عَادَتْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ وَالنَّاسُ تَسْتَعِدُّ لِلرَّحِيلِ تَفَقَّدَتِ الْعِقْدَ فَلَمْ تَجِدْهُ ، فَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ قَدِ انْسَلَّ مِنْهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ ذَهَبَتْ تَقْضِي حَاجَتَهَا فِيهِ . فَرَجَعَتْ تَبْحَثُ عَنْهُ حَتَّى وَجَدَتْهُ ، وَلٰكِنَّهَا حِينَمَا عَادَتْ إِلَى مَكَانِ الْمُعَسْكَرِ لَمْ تَجِدْ لِلْمُعَسْكَرِ أَثَرًا فَقَدْ نَشِطَ أَهْلُهُ إِلَى شَدِّ رِحَالِهِمْ ، وَغَادَرُوهُ مُسْرِعِينَ ... ! وَوَقَفَتْ عَائِشَةُ حَيْرَى ... ! لاَ تَدْرِي مَا تَفْعَلُ ... ! وَقَدْ خَلَّفَهَا الْقَوْمُ وَحِيدَةً فِي فِسَاحِ الصَّحْرَاءِ ... وَهُمْ يَحْسَبُونَهَا بِلاَ شَكٍّ فِي هَوْدَجِهَا فَوْقَ بَعِيرِهَا الَّذِي يَصْحَبُ رَكْبَهُمْ ، وَيَسِيرُ بَيْنَ رَوَاحِلِهِمْ .

وَكَانَ هٰذَا حَقًّا مَا يَحْسَبُهُ الْمُرْتَحِلُونَ ... ! فَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الرِّجَالِ

الْقَائِمِينَ عَلَى أَمْرِ هَوْدَجِ زَوْجَةِ الرَّسُولِ وَبَعِيرِهَا أَنْ يَأْتُوا بِالْهَوْدَجِ فَيَضَعُوهُ أَمَامَ خَيْمَةِ عَائِشَةَ فَتَخْرُجَ هِيَ وَتَجْلِسَ فِيهِ حَتَّى يَأْتِيَ الرِّجَالُ وَيَرْفَعُوهُ فَوْقَ الْبَعِيرِ وَيُثْبِتُوهُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَأْخُذُوا بِمِقْوَدِ الْبَعِيرِ يَقُودُونَهُ إِلَى حَيْثُ يَسِيرُونَ .

وَحَصَلَ فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ أَنْ جَاءَ الرِّجَالُ فَرَفَعُوا الْهَوْدَجَ فَوْقَ الْبَعِيرِ ، دُونَ أَنْ يَفْطِنُوا إِلَى أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ لَيْسَتْ فِيهِ لِنَحَافَتِهَا وَصِغَرِهَا وَخِفَّةِ وَزْنِهَا . ثُمَّ قَوَّضُوا الْخِيَامَ وَأَسْرَعُوا بِالْمَسِيرِ .

وَأَدْرَكَتْ عَائِشَةُ بِبَدِيهَتِهَا مَا قَدْ حَصَلَ ، فَأَيْقَنَتْ أَنَّ الْقَوْمَ إِذَا مَا افْتَقَدُوهَا فَوْقَ بَعِيرِهَا وَلَمْ يَجِدُوهَا فَسَوْفَ يَعُودُونَ أَدْرَاجَهُمْ لِلْبَحْثِ عَنْهَا . وَبِهٰذَا الْخَاطِرِ شَاعَ الاِطْمِئْنَانُ فِي نَفْسِ عَائِشَةَ ، فَتَدَثَّرَتْ بِثَوْبِهَا وَاضْطَجَعَتْ فِي مَكَانِهَا تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ الْبَاحِثِينَ عَنْهَا .

وَشَاءَتِ الصُّدَفُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْمُعَسْكَرِ أَيْضًا صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ، وَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى بَعِيرِهِ يَهُمُّ بِأَنْ يَحُثَّ السَّيْرَ لِلَّحَاقِ بِأَصْحَابِهِ ، إِذْ بِهِ يُبْصِرُ عَائِشَةَ فِي مَضْجَعِهَا فَوْقَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ ، وَكَانَ صَفْوَانُ يَرَى عَائِشَةَ قَبْلَ نُزُولِ الْحِجَابِ ، فَبُهِتَ وَدَهِشَ وَمَا مَلَكَ إِلاَّ أَنِ

اسْتَرْجَعَ يَقُولُ :

إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ...! مَا خَلَّفَكِ يَرْحَمُكِ اللهُ ؟!

وَقَدَّمَ صَفْوَانُ بَعِيرَهُ مِنْ عَائِشَةَ قَائِلاً لَهَا : ارْكَبِى .

ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنْهَا حَتَّى رَكِبَتْ ، فَتَقَدَّمَ فَأَخَذَ بِمِقْوَدِ بَعِيرِهِ وَسَارَ بِهِ يَحُثُّ الْخُطَا يَبْغِى اللَّحَاقَ بِأَصْحَابِهِ الْمُسْلِمِينَ .

وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا مِنَ السُّرْعَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ صَفْوَانُ وَبَعِيرُهُ اللَّحَاقَ بِهِمْ ؛ وَعَلَى ذٰلِكَ دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْمَدِينَةَ ، وَفِى أَعْقَابِهِمْ دَخَلَ صَفْوَانُ يَقُودُ بَعِيرَهُ وَعَلَيْهِ تَرْكَبُ زَوْجَةُ النَّبِىِّ عَائِشَةُ .

وَعَلِمَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَا كَانَ مِنْ تَخَلُّفِ عَائِشَةَ ، وَقَصَّتْ عَائِشَةُ عَلَى النَّبِىِّ مَا كَانَ مِنْ سَبَبِ تَخَلُّفِهَا .

وَتَفَرَّغَ النَّبِىُّ يَنْظُرُ فِى أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُقَسِّمُ بَيْنَهُمْ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَزْوَةِ بَنِى الْمُصْطَلِقِ .

فَكَانَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ سَيِّدِ بَنِى الْمُصْطَلِقِ فِى نَصِيبِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يُدْعَى ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ ، فَأَرَادَتْ جُوَيْرِيَةُ أَنْ تَسْتَخْلِصَ نَفْسَهَا مِنَ

الأَسْرِ وَتَفْتَدِىَ نَفْسَهَا مِنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ، فَأَغْلَى عَلَيْهَا ثَابِتٌ الْفِدَاءَ ، فَأَتَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ تَسْتَعِينُهُ فِى هٰذَا الأَمْرِ وَهِىَ تَقُولُ :

أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ سَيِّدِ قَوْمِهِ وَقَدْ أَصَابَنِى مِنَ الْبَلاَءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ وَقَعْتُ فِى نَصِيبِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِى ، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِى .

فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ : فَهَلْ لَكِ فِى خَيْرٍ مِنْ ذٰلِكَ ؟

قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟

قَالَ : أَقْضِى عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ .

قَالَتْ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ !

وَهٰكَذَا أَسْلَمَتْ جُوَيْرِيَةُ ، وَارْتَفَعَ بِهَا النَّبِىُّ مِنْ مَصَافِّ السَّبَايَا إِلَى مَصَافِّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَعَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِمَا حَبَا اللهُ بِهِ جُوَيْرِيَةَ بِزَوَاجِهَا مِنَ الرَّسُولِ ، فَأَطْلَقُوا مَنْ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَسْرَى بَنِى الْمُصْطَلِقِ وَسَبَايَاهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ :

إِنَّمَا هٰؤُلاَءِ هُمْ أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ .

وَهٰكَذَا كَانَ زَوَاجُ النَّبِىِّ مِنْ جُوَيْرِيَةَ سَبَبًا فِى جَلْبِ خَيْرٍ كَبِيرٍ إِلَى قَوْمِهَا ، حَتَّى لَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجَةُ الرَّسُولِ تَقُولُ فِى ذٰلِكَ :

مَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْ جُوَيْرِيَةَ .

وَظَلَّ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ يَتَرَقَّبُونَ قَرَارَ النَّبِىِّ بِشَأْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَىٍّ وَهُمْ يَكَادُونَ يُوقِنُونَ أَنَّ النَّبِىَّ سَيَأْمُرُ بِقَتْلِهِ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مَا أَنْزَلَ فِى شَأْنِهِ مِنْ قُرْآنٍ .

أَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ فَقَدْ سَارَ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ! إِنَّهُ بَلَغَنِى أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ أَبِى ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلاً فَمُرْنِى بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّى ، وَإِنِّى أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِى فَيَقْتُلَهُ ، فَلاَ تَدَعُنِى نَفْسِى أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ أَبِى ، فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ ، فَأَدْخُلَ بِذٰلِكَ النَّارَ ...!!

لله دَرُّكَ يَا عَبْدَ اللهِ ...!! مَاذَا كَانَ يَضْطَرِمُ فِى نَفْسِكَ ، وَأَنْتَ تَعْرِضُ عَلَى النَّبِىِّ أَنْ تَأْتِيَهُ أَنْتَ بِرَأْسِ وَالِدِكَ ..؟!! وَمَاذَا كَانَ يَعْتَمِلُ فِى صَدْرِكَ وَأَنْتَ بَيْنَ عَامِلَيْنِ : عَامِلِ إِيمَانِكَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَامِلِ بِرِّكَ بِأَبِيكَ ..؟!!

وَنَظَرَ النَّبِىُّ إِلَى عَبْدِ اللهِ نَظْرَةَ عَطْفٍ وَإِكْبَارٍ وَقَالَ :

بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِىَ مَعَنَا .

يَا للهِ ...! مَا أَجْمَلَ عَفْوَكَ ، وَأَسْمَى رِفْقَكَ يَا مُحَمَّدُ ...!

وَهٰكَذَا عَفَا مُحَمَّدٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَىٍّ ، وَبِذٰلِكَ صَانَ دَمَ ابْنِ أُبَىٍّ ، وَصَارَتْ حَيَاتُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ هِبَةً مِنْ هِبَاتِ مُحَمَّدٍ !

وَبِذٰلِكَ أَصْبَحَ قَوْمُ ابْنِ أُبَىٍّ يَلُومُونَهُ وَيُعَنِّفُونَهُ كُلَّمَا بَدَرَتْ مِنْهُ بَادِرَةٌ ضِدَّ مُحَمَّدٍ ، وَيُذَكِّرُونَهُ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ! حَتَّى لَقَدْ قَالَ مُحَمَّدٌ فِى ذٰلِكَ يَوْمًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :

كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ ...؟! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِى اقْتُلْهُ – لأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ ، لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ . وَهٰذَا حَقٌّ ، فَلَوْ أَنَّ مُحَمَّدًا سَمَحَ بِقَتْلِهِ أَوَّلَ الأَمْرِ لَغَضِبَ لَهُ نَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَلٰكِنَّ جَمِيلَ التَّصَرُّفِ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَغْضَبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَنْفِرُونَ مِنْهُ ، حَتَّى ابْنُهُ صَارَ يَسْتَأْذِنُ مُحَمَّدًا فِى أَنْ يَقْتُلَ هُوَ أَبَاهُ بِيَدِهِ ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يَسَعْ عُمَرَ إِلاَّ أَنْ يَقُولَ :

قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ : لأَمْرُ رَسُولِ اللهِ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِى .

فِى هٰذَا الْوَقْتِ الَّذِى قَدَّرَ مُحَمَّدٌ فِيهِ أَنَّهُ قَدْ فَرَغَ مِنْ ذُيُولِ غَزْوَةِ بَنِى الْمُصْطَلِقِ ، وَقَضَى عَلَى فِتْنَةِ ابْنِ أُبَىٍّ ، كَانَ يَسْرِى فِى جَوِّ الْمَدِينَةِ شَائِعَاتٌ ، وَكَانَ يُهْمَسُ فِى مَجَالِسِهَا بِحَدِيثٍ ، وَكَانَتْ تَنْتَقِلُ بَيْنَ هُنَا وَهُنَاكَ أَقْوَالٌ وَأَرَاجِيفُ فَحْوَاهَا مَا كَانَ مِنْ تَخَلُّفِ عَائِشَةَ عَنْ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَوْدَتِهَا مُنْفَرِدَةً مَعَ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ . وَزَادَ بَعْضُ الْوُشَاةِ فَصَرَّحُوا وَأَفْصَحُوا عَنْ عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ بِقَوْلِ السُّوءِ ، وَكَانَ مِمَّنْ صَرَّحَ وَأَفْصَحَ بِهٰذَا حَمْنَةُ بِنْتُ

جَحْشٍ أُخْتُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْش زَوْجَةِ الرَّسُولِ ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الشَّاعِرُ ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ مِنْ أَقْرِبَاءِ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيق .

أَمَّا ابْنُ أُبَيٍّ فَقَدْ لَقِىَ فِى هٰذِهِ الأَرَاجِيفِ خَيْرَ مُعِينٍ لَهُ عَلَى إِشْبَاعِ نَفْسِهِ الشِّرِّيرَةِ ، وَإِرْضَاءِ ما بِهَا مِنْ غِلٍّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَحَسَدٍ لَهُ ، وَوَجَدَ فِيهَا مَرْتَعًا خَصِيبًا لِلنَّيْلِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ، فَرَاحَ يَعْمَلُ عَلَى إِذَاعَةِ هٰذِهِ الأَقْوَالِ جَاهِدًا فِى نَشْرِهَا هُنَا وهُنَاكَ ...!

فِى هٰذَا الْوَقْتِ الَّذِى كَانَ يَدُورُ فِيهِ هٰذَا بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَتْ عَائِشَةَ طَرِيحَةَ الْفِرَاشِ فِى مَسْكَنِهَا بِدَارِ الرَّسُولِ وَهِىَ لاَ تَدْرِى مِمَّا يُقَالُ عَنْهَا شَيْئًا ، وَكَانَتْ بِجَانِبِهَا أُمُّهَا أُمُّ رُومَانَ تَقُومُ عَلَى تَمْرِيضِهَا ، وَهِىَ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يُقَالُ عَنِ ابْنَتِهَا ، وَلٰكِنَّهَا لاَ تَجْسُرُ عَلَى أَنْ تَقُولَ لَهَا مِنْهُ شَيْئًا .

أَمَّا النَّبِىُّ فَقَدْ وَقَعَ سَمْعُهُ عَلَى بَعْضِ مَا يُقَالُ ... فَنَالَ مَا سَمِعَ مِنْ نَفْسِهِ أَبْعَدَ مَنَالٍ وَوَجَدَ لَهُ أَشَدَّ الْوَجْدِ ... وَحَارَ النَّبِىُّ ..! أَيُلْقِى بَالاً إِلَى مَا يَتَقَوَّلُ بِهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَنْ عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ ..! أَمْ يَجْعَلُ مَا يَعْرِفُهُ عَنْ إِيمَانِ عَائِشَةَ وَسُمُوِّهَا وَعِفَّتِهَا ، وَمَا يَعْلَمُهُ عَنْ إِخْلاَصِ صَفْوَانَ وَتَقْوَاهُ - حُكْمًا مُنَزَّهًا

لَهُمَا ...؟!

وَظَلَّتْ نَفْسُ النَّبِيِّ مُضْطَرِبَةً قَلِقَةً ، وَظَلَّ فِكْرُهُ لاَ يَسْتَقِرّ إِلَى رَأْيٍ ، وَلاَ يَنْتَهِي إِلَى حَالٍ ! حَتَّى لَكَانَ إِذَا دَخَلَ إِلَى عَائِشَةَ لِيَعُودَهَا فِي مَرَضِهَا لاَ يَقُولُ لَهَا وَلأُمِّهَا إِلاَّ :

كَيْفَ حَالُكُمْ ...؟! أَوْ كَيْفَ تِيكُمْ ...؟!

ثُمَّ يَخْرُجُ دُونَ أَنْ يَزِيدَ .

وَدَهِشَتْ عَائِشَةُ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ مَعَهَا ، وَهُوَ الَّذِي عَوَّدَهَا الْحُبَّ وَالْعَطْفَ وَالْحَنَانَ وَهِيَ سَلِيمَةٌ ؛ أَمَّا وَهِيَ مَرِيضَةٌ ضَعِيفَةٌ طَرِيحَةُ الْفِرَاشِ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ مِنْهُ أَضْعَافَ مَا يَفْعَلُ وَهِيَ صَحِيحَةٌ .

وَنَالَتْ مُعَامَلَةُ الرَّسُولِ هٰذِهِ ، وَالَّتِي لاَ تَعْرِفُ عَائِشَةُ لَهَا سَبَبًا مِنْ نَفْسِ عَائِشَةَ مَنَالاً كَبِيرًا ، وَحَزِنَتْ لِذٰلِكَ أَشَدَّ الْحُزْنِ ، وَلَمْ تَجِدْ إِلاَّ أَنْ تَقُولَ لِلرَّسُولِ يَوْمًا حِينَ دَخَلَ يَعُودُهَا ، وَقَدْ ظَنَّتْ أَنَّهَا قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ بِمَرَضِهَا : لَوْ أَذِنْتَ لِي ، فَانْتَقَلْتُ إِلَى أُمِّي فَمَرَّضَتْنِي ؟ فَأَجَابَ الرَّسُولُ : لاَ عَلَيْكِ .

وَانْتَقَلَتْ عَائِشَةُ إِلَى دَارِ أَبِيهَا تُمَرِّضُهَا أُمُّهَا هُنَاكَ ، وَهِيَ فِي حُزْنٍ وَعَجَبٍ

لِجَفْوَةِ النَّبِىِّ لَهَا ..!! وَكَانَ مِنْ تَأَثُّرِ النَّبِىِّ مِمَّا يَتَقَوَّلُ بِه بَعْضُ النَّاسِ ، أَنْ وَقَفَ يَوْمًا بِالْمَسْجِدِ يَخْطُبُ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِى فِى أَهْلِى ، وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْحَقِّ ؟!! وَاللهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْرًا ... وَيَقُولُونَ ذٰلِكَ لِرَجُلٍ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلاَّ خَيْرًا ، وَمَا يَدْخُلُ بَيْتًا مِنْ بُيُوتِى إِلاَّ وَهُوَ مَعِى ..!

عِنْدَئِذٍ نَهَضَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ سَيِّدُ الأَوْسِ يَقُولُ لِلرَّسُولِ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنْ يَكُونُوا مِنَ الأَوْسِ نَكْفِكَهُمْ ، وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللهِ إِنَّهُمْ لأَهْلٌ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ . وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ مَنْ تَحَدَّثُوا فِى أَمْرِ عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ مِنَ الْخَزْرَجِ ، تَبَعًا لِنَشَاطِ ابْنِ أُبَىٍّ فِى إِشَاعَةِ هٰذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ قَوْمِهِ ، فَقَدْ هَبَّ الْخَزْرَجُ ثَائِرِينَ عَلَى مَقَالَةِ أُسَيْدِ ابْنِ حُضَيْرٍ وَكَادَتْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا ثَوْرَةٌ عَنِيفَةٌ لَوْلاَ تَدَخُّلُ النَّبِىِّ بِحِكْمَتِهِ فِى فَضِّهَا .

وَارْتَأَى النَّبِىُّ أَنْ يَسْتَشِيرَ فِى هٰذَا الأَمْرِ بَعْضَ أَصْفِيَائِهِ ، فَدَعَا إِلَيْهِ عَلِىَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَسَأَلَهُمَا رَأْيَهُمَا فِيمَا يَتَقَوَّلُ بِهِ النَّاسُ ، فَأَثْنَى أُسَامَةُ

عَلَى عَائِشَةَ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَهْلَكَ ، وَلاَ نَعْلَمُ مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْرًا ، وَهٰذَا الْكَلاَمُ الَّذِى يَتَقَوَّلُ بِهِ النَّاسُ مَا هُوَ إِلاَّ كَذِبٌ بَاطِلٌ .

أَمَّا عَلِىٌّ فَإِنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ النِّسَاءَ لَكثيرٌ ، وَإِنَّكَ لَقَادِرٌ عَلَى أَنْ تَسْتَخْلِفَ ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ فَإِنَّهَا سَتَصْدُقُكَ .

وَدُعِيَتْ بَرِيرَةُ جَارِيَةُ عَائِشَةَ ، وَسُئِلَتْ ، فَأَثْنَتْ خَيْرَ الثَّنَاءِ عَلَى عَائِشَةَ ، فَقَامَ إِلَيْهَا عَلِىٌّ يُهَدِّدُهَا وَيَضْرِبُهَا وَهُوَ يَقُولُ لَهَا : اُصْدُقِى رَسُولَ اللهِ . وَهِىَ مَاتَنِى عَنِ الثَّنَاءِ عَلَى عَائِشَةَ وَتَقُولُ :

وَاللهِ مَا أَعْلَمُ إِلاَّ خَيْرًا ، وَمَا كُنْتُ أَعِيبُ عَلَى عَائِشَةَ شَيْئًا إِلاَّ أَنِّى كُنْتُ أَعْجِنُ عَجِينِى ، وَأَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَحْفَظَه ، فَتَنَامَ عَنْهُ ، فَتَأْتِىَ الشِّيَاهُ فَتَأْكُلَهُ !

وَدَخَلَ النَّبِىُّ إِلَى زَوْجِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ يَسْأَلُهَا ، وَكَانَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ مِمَّنْ خَاضَ فِى هٰذَا الْمَوْضُوعِ ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ لِلرَّسُولِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّى أَحْمِى سَمْعِى وَبَصَرِى ، مَا عَلِمْتُ مِنْ عَائِشَةَ إِلاَّ خَيْرًا .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدِ النَّبِىُّ أَمَامَهُ إِلاَّ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى عَائِشَةَ يُطْلِعُهَا عَلَى مَا يَتَقَوَّلُ بِهِ النَّاسُ . وَيَسْأَلُهَا أَنْ تَقُولَ الْحَقَّ ...!

فِي هٰذَا الْوَقْتِ كَانَتْ عَائِشَةُ قَدْ عَرَفَتْ مَا يَتَقَوَّلُ بِهِ النَّاسُ عَلَيْهَا ، أَخْبَرَتْهَا بِهِ قَرِيبَةٌ لَهَا ، فَكَانَ لِهٰذَا الْخَبَرِ فِي نَفْسِهَا وَقْعٌ شَدِيدٌ سَيِّئٌ ، وَعَادَ بِهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْمَرَضِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَدْ أَبَلَّتْ وَعُوفِيَتْ . وَلَمْ تَرْقَأْ لِعَائِشَةَ بَعْدَ ذٰلِكَ عَيْنٌ ، وَلَمْ يَجِفَّ لَهَا دَمْعٌ ، فَظَلَّتْ تَبْكِي وَتَبْكِي ، وَقَدْ عَلِمَتْ سِرَّ هَجْرِ رَسُولِ اللهِ لَهَا ، فَعَزَّ عَلَيْهَا أَنْ يَظُنَّ بِهَا السُّوءَ ، وَكَبُرَ عَلَيْهَا أَنْ تَأْخُذَهُ فِيهَا الرِّيبَةُ . . !

وَأَقْبَلَتْ عَائِشَةُ عَلَى أُمِّهَا تُعَاتِبُهَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ إِخْفَائِهَا هٰذَا الأَمْرَ عَنْهَا فَتَقُولُ : يَغْفِرُ اللهُ لَكِ ، تَحَدَّثَ النَّاسُ بِمَا تَحَدَّثُوا بِهِ ، وَلاَ تَذْكُرِينَ مِنْهُ شَيْئًا . . ! ! فَتَقُولُ لَهَا أُمُّهَا : أَيْ بُنَيَّةُ ؛ هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فَوَاللهِ لَطَالَمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا ، لَهَا ضَرَائِرُ ، إِلاَّ كَثَّرْنَ وَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهَا .

وَدَخَلَ النَّبِيُّ عَلَى عَائِشَةَ وَعِنْدَهَا أَبَوَاهَا ، وَهِيَ تَبْكِي ، وَبِجِوَارِهَا امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَبْكِي مَعَهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ :

يَا عَائِشَةُ ؛ إِنَّهُ قَدْ كَانَ مَا قَدْ بَلَغَكِ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ ، فَاتَّقِي اللهَ ، وَإِنْ

كُنْتِ قَدْ أَتَيْتِ سُوءًا مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ فَتُوبِى إِلَى اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ..

فَمَا فَرَغَ النَّبِىُّ مِنْ قَوْلِهِ هٰذَا ، حَتَّى أَخَذَتْ عَائِشَةَ قُوَّةُ اعْتِدَادِ النَّفْسِ الْبَرِيئَةِ وَثَوْرَةُ الشُّعُورِ بِعِزَّةِ الْكَرَامَةِ ، فَجَفَّ الدَّمْعُ مِنْ مَآقِيهَا ، وَنَظَرَتْ إِلَى أَبَوَيْهَا تَنْتَظِرُ بِمَاذَا يُجِيبَانِ الرَّسُولَ ، وَلَكِنَّ أَبَوَيْهَا سَكَتَا فَلَمْ يَنْطِقَا حَرْفًا ، فَقَالَتْ لَهُمَا :

أَلاَ تُجِيبَانِ ؟! قَالاَ : وَاللهِ مَا نَدْرِى بِمَاذَا نُجِيبُ ..!!

فَلَمَّا رَأَتْ عَائِشَةُ مَا كَانَ مِنْ إِحْجَامِ وَالِدَيْهَا عَنِ الإِجَابَةِ بِمَا يُبَرِّئُهَا لَدَى الرَّسُولِ ، خَنَقَتْهَا عَبَرَاتُهَا ، وَعَادَتْ إِلَى بُكَائِهَا ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ قَالَتْ تُجِيبُ الرَّسُولَ : وَاللهِ لاَ أَتُوبُ إِلَى اللهِ مِمَّا ذَكَرْتَ أَبَدًا ، وَاللهِ إِنِّى لأَعْلَمُ لَئِنْ أَقْرَرْتُ بِمَا يَقُولُ النَّاسُ – وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّى مِنْهُ بَرِيئَةٌ – لأَقُولَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ ، وَلَئِنْ أَنَا أَنْكَرْتُ مَا يَقُولُونَ لاَ تُصَدِّقُونَنِى .

وَسَكَتَتْ عَائِشَةُ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَتْ : وَلَكِنْ سَأَقُولُ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ !

وَكَانَ عَوْنُ اللهِ لِعَائِشَةَ فِى مِحْنَتِهَا الْقَاسِيَةِ أَقْرَبَ مِمَّا تَوَقَّعَتْ ، فَمَا لَبِثَ النَّبِىُّ أَنْ تَغَشَّاهُ مَا يَتَغَشَّاهُ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْىِ ، فَسَجَّاهُ الْحَاضِرُونَ بِثَوْبِهِ ، وَوَسَّدُوا رَأْسَهُ وَعَلِمَ الْجَمِيعُ أَنَّ اللهَ سَيُنْزِلُ عَلَى نَبِيِّهِ مَا يَكْشِفُ لَهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ حَيْرَةٍ وَقَلَقٍ ، وَرَأَتْ عَائِشَةُ هٰذَا فَلَمْ تَجْزَعْ وَلَمْ تَفْزَعْ ، أَمَّا وَالِدَاهَا ، فَمَا سُرِّىَ عَنْ رَسُولِ اللهِ إِلاَّ وَقَدْ كَادَتْ نَفْسَاهُمَا أَنْ تَخْرُجَا فَزَعًا وَفَرَقًا مِنْ أَنْ يَأْتِىَ اللهُ بِتَحْقِيقِ مَا قَالَ النَّاسُ .

وَاسْتَوَى النَّبِىُّ جَالِسًا ، يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ قَطَرَاتِ الْعَرَقِ الَّتِى تَتَصَبَّبُ عَلَى وَجْهِهِ ، وَقَدْ بَشَّ وَجْهُهُ ، وَاسْتَبْشَرَ مُحَيَّاهُ ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ : أَبْشِرِى يَا عَائِشَةُ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ ..!

فَهَتَفَتْ عَائِشَةُ : بِحَمْدِ اللهِ ..!

وَخَرَجَ النَّبِىُّ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَخَطَبَ فِى النَّاسِ بِمَا كَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعَائِشَةَ وَتَلاَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ فِى هٰذَا الشَّأْنِ مِنْ قُرْآنٍ .

ثُمَّ أَمَرَ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ، وَبِمِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ ، وَبِحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَكَانُوا مِمَّنْ أَفْصَحُوا عَنْ عَائِشَةَ بِالسُّوءِ ، فَجُلِدُوا مَا أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ بِهِ . وَكَانَ

أَمْرُ اللهِ لِلرَّسُولِ فِي ذٰلِكَ .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

رقم الإيداع		١٩٩٤ / ٩٧٥٧
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4770 - 7	ISBN

٧ / ٩٤ / ٢١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)